

استبدال الهوية

دراسة تحليلية لرواية "خارج الجسد"

إبراهيم بن محمد الشتوي / المملكة العربية السعودية

Replacing of Identity: An Analytic Study of “Out of the Body” by Afaf Batayna

Ibrahim Ben Muhammad Alshetwi

Al-imam Muhammad ibn saud Islamic university

Email: alshetwi_dr@hotmail.com

Received: 16 April 2013; Revised: 9 June-20 August 2013; Accepted: 28 August 2013

Published online: 1 Sept. 2013

Abstract: The studies about identity have developed in recent years. It started with seeking a definition for it till it deconstructs the definition to find a new aspect for it. In the novel “Out of the Body”, the main character experiences a very bad life with her own family because of customs. When she moved to Europe with her husband, she found her people bring their customs from their back home as a shelter to protect them from influence of the west culture. However, she denied the style of life of Arab community and went to explore the others’ lives which she liked and adopted, until her relatives refused her new life which makes her change her appearance to be not known from them. That means we can’t adopt other peoples’ ‘customs unless we become like them. This would build dualism of identity based on the dualism of: “me” and “you”. This is against the rules of the new world.

Keywords: Arabic literature, Arabic novel, Jordanian novel, Arabic women, identity, culture, Arabic culture, feminism, Arabic culture studies, women writing, Arabic society, post identity.

استبدال الهوية

دراسة تحليلية لرواية "خارج الجسد"

إبراهيم بن محمد الشتوي / المملكة العربية السعودية

المدخل:

إن العالم يتداخله وتقاربه، وتطور وسائل الاتصال فيه، والأدوات الناقلة للحضارات والثقافات، جعل أمر الثقافة الخاصة أمراً غير خاص، فليس من الصعب الاطلاع على أدق ما يميز شعباً من الشعوب، وفهمهم وتبني نماذج من ثقافتهم، أو فهمها ومعرفة ما تتطوي عليه من معانٍ. والعكس كذلك والمتمثل بالتخلص من العادات أو المكونات الثقافية التي نرى أن الأجيال قد تجاوزتها، ولم تعد تجدي شيئاً ذا بال.

والنص الذي بين أيدينا يناقش هذه القضية بصورة مغايرة، ويسهم في طرح بعض الأسئلة التي تتماثل مع كثير من الأسئلة التي طرحت عن الموضوع حول هذه القضية.

النص:

تمثل رواية "خارج الجسد"³ إحدى النصوص التي تتناول العلاقة بالآخر، وتعد مقارنة صريحة به، وهي لا تطرح إشكالية العلاقة بالآخر كما تطرحها كثير من النصوص التي تناولت القضية بقدر ما تطرح إشكالية العلاقة بالذات، من خلال مقارنتها بالآخر، ليس بصورة التفضيل، أو البحث عن خطاظة ورؤية للأوروبي المختلف وإنما للبحث

ما هو العربي، وما هو القومي، وما هو ليس العربي ولا القومي؟ يفتح السؤال مثل جرح ينز بعيد الغور في بناء العقل والجسد الثقافيين، ويستحيل إلى غصة في نفس كل مثقف وكاتب يطمح أن يعيد صياغة الحاضر كما فعل أسلافه من قبل. ذلك أنه بناء على تحديد العربي والقومي وغير العربي، وتحديد ما يستحق أن يكون معبراً عن الذات، يتحدد مفهوم الهوية ومفهوم الذات، ثم علاقة هذه المكونات بالمكونات الأخرى التي لا تنتمي إلى نفس الجماعة إذا كانت لاتعارض مع المكونات الأصلية ويمكن أن تجتمع دون أن تشكل تعارضاً.

إن مسألة الهوية والبحث فيها قد أخذت في العصر الحديث بحثاً طويلاً، فلم يعد البحث فيها يدور حول مفهوم الهوية، أو كيف نحافظ عليها، أو في أنواعها، بل تجاوز ذلك إلى النظر في معطى الهوية من حيث إنه معطى سياسي¹، وأن الهدف منه نفعي بالدرجة الأولى²، ومن هنا فما المانع من تجاوز هذا المفهوم الحرفي له والجمع بين أكثر من هوية إذا كان ذلك أرفع بما يمكن أن يسمى بالهويات المتعددة، أو ما بعد الهويات.

¹ انظر: حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر-ديسمبر 1999، ص 103.
² في كتاب: George Schopflin. Nations Identity Power. (London:HURST & Company, 2000), p20.

³ عفاف البطاينة، خارج الجسد، الطبعة الأولى، (دار الساقي، لبنان، 2004م).

منها، ويتم له ما أراد في حين تصر هي على رفضه والامتناع عنه، ويسعى أن يحل هذه المشكلة بكل الوسائل؛ باللين مرة، والعنف أخرى، والشعوزة الثالثة، والطب رابعة، وحين يشعر بآسؤه وعجزه يتفق وإياها على الطلاق دون أن يمسه.

وهو ما يجعلها تعود إلى بيت أبيها مرة أخرى، وعلى إثر خلاف دار حول تنازلها عن حقوقها من الزواج وتشابك بالأيدي مع والدها وإبلاغ الشرطة عنه، تنتقل للسكنى مع عمها الذي يأتي في النص بصورة مغايرة عن والدها، حيث يسعى للوقوف في صفها والدفاع عنها. في هذه الأثناء وقبيل تخرجها على وجه الخصوص، تسعى صديقتها وهي مسيحية إلى البحث لها عن زوج خارج بلادها، وهو زوج عربي مسلم لكنه يعيش في أوسكتلندا، وترتب له لقاء بينهما، ويتم الزواج به وترتحل إلى أوسكتلندا.

هناك ينشغل الزوج في أعماله عنها، ولا يكون الزوج الذي يحقق طموحاتها، وهو ما يجعله ينكشف عن شخصية نمطية لأبيها المتعسف العنيف، وحين تصر على أن تغير حياتها هناك خاصة باللقاء ببعض النساء الأوسكتلنديات تتمكن من الحصول على عمل، والقيام بمشروع ثم الانفصال عن زوجها، والارتباط برجل أجنبي يقدر حياتها أجمل تقدير، ويلبي حاجاتها المتنوعة، ولا يجد زوجها العربي بدا من القبول بالأمر الواقع خاصة حين يكتشف أنه يعاني مرضا خطيرا قد يودي بحياته في أية لحظة.

في هذه الأثناء يأتيها الخبر عن مرض والدها، وسؤال أهلها حضورها قبل أن يموت، وهو ما كانت الرواية قد بدأت به حيث كانت تجالس والدها وتذكر الأيام الخوالي وتراقب فرح النساء من حوله بقرب نهايته، ووفاته، مما يجعلها تعود إلى بلدها وتلتقي أباها قبل أن يموت، ثم يموت وهي عنده وتشهد حالات الدفن، واختلاف الأسرة حول الميراث.

تعود إلى أسرتها في أوسكتلندا وتعاود قص الحكاية التي تتطور بحوادث فرعية أهمها زيارة عمها سالم لها في منزلها ومعرفته بعلاقتها بالشباب الأجنبي وحملها منه، ورفضه لتلك العلاقة، ثم معرفة أسرتها به، وزيارة أحد أقاربها راغبا في

عن نموذج يتم من خلاله التعرف على الذات ومعرفة التعامل مع مكوناته وطرح رؤية حيال ذلك.⁴

تقوم الرواية على شخصية منى التي تعيش في أسرة فقيرة تتحسن معيشتها حين يعمل والدها في الإمارات، الأمر الذي يجعله لا يراها إلا في إجازة الصيف، ولأنه متزوج من أخرى يفضلها وأولادها، فإن هذا يقلل من فرص اللقاء، ويجعلها تتحدد في أوقات قليلة جدا، يتبعها قلة ما يعطي هذه الأسرة في مقابل الأسرة الأخرى، حتى لو أدى إلى ترك بناته المدارس، وخروج الابن إلى العمل مقابل الذهاب إلى المدرسة. الأمر الذي حدا بالأُم إلى الوقوف ضد هذا المشروع والتضحية بكل غال حتى يتمكن أولادها من الذهاب إلى المدرسة.

حين بلغت الفتاة السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية تعرفت على شاب وعدها بالزواج منه، فذهبت لتلقيه في المقهى العام، ولأنها تعيش في قرية صغيرة لا تحبذ جلوس البنات مع الأولاد في المقاهي، فقد لاكتها الألسن واتهمتها بعرضها. الأمر الذي جعل أبها يعتدي عليها بالضرب والإهانة والحبس، ويقذفها بأقبح الصفات، ويمنعها من إكمال دراستها في الجامعة بالرغم من تفوقها وحصولها على درجة عالية.

أصرت على الدراسة وأصر والدها على عدمها، ولأن والدها يريد أن يتخلص منها وأن يزوجها أقرب الرجال، فقد زوجها لشاب اسمه محروس، منبوذ في القرية لقبح شكله، وضعفه، وهو ما استغلته لتحقيق مآربها فقبلت بزواجها منه لأجل أن تتمكن من إكمال تعليمها الجامعي، وحين وافق أبها مرغما على ذهابها للجامعة، وبدأت في إجراءات القبول، بدأت في محاولة التخلص من الزوج بتكليفه ما لا يطيق، واتخاذ سخرية في كل موضع تلقى فيه عله يتراجع عن الزواج، وحين لم تجد هذه الوسائل نفعاً، تذهب لإخباره مباشرة أنها لا تريد الزواج به، ومع ذلك يصير على زواجه

⁴ ينظر مثلا: رفاة الطهطاوي، تخلص الإبريز في تخلص باريز، الذي ظهرت فيها روح المقارنة بشكل كبير في مواقف كثيرة، كما ينظر أيضا طه حسين في رواية أديب التي تعد من أوائل الروايات التي طرحت قضية العلاقة بالآخر بشكل تخيلي، وسعت إلى المقارنة بين أسلوب الحياة الأوربية وأسلوب الحياة العربية، والشواهد على ذلك كثيرة؛ انظر: عصام بهي، الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية، الحديثة، دط، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م)، و.إبراهيم الشنوي، "الموقف من الآخر في السرد العربي"، صحيفة الجزيرة، المجلة الثقافية، الرياض، العدد 354، تاريخ: 2011/12/1/1433/1/6.

هذا التحول وحقيقة النص الذي يواجهها في التلخيص تفصله منى فيما بعد، فهي تواجهنا بعد ذلك بنقل الأشياء من عدستها: "وحتى كنت أتحسر عندما أخرجت ثياب أبي وأشياءه من حجرته لتلقى إلى جانب النفايات أو لتوزع على فقراء القرية"⁶، وهي التي تصف الأشياء أمامها، مكونات المنزل من حيث ما تراه:

"يتكون بيت العائلة من غرف صغيرة متلاصقة تمتد على جانبي مربع؛ تقع على واحد من أضلاعه حجرة مغلقة معظم الوقت، لا يدخلها إلا الضيوف الغريباء، هي نفسها الغرفة التي تم زواج أم وأبي منصور فيها، وكان يشاركهما ليلتهما الأولى بقرة من أبقار العجوز وشوالات القمح. إلى جوارها حجرة لمعيشة عائلة الجد ومطبخ صغير. على ضلع آخر تقع حجرة عائلة سالم التي يسكنها مع زوجته وابنته. وإلى جوارها حجرة عامر وزوجته. في الطرف الأقصى حجرة عائلة أبي منصور التي تسكنها أم منصور وبناتها الثلاث"⁷.

ثم تواجهنا بصراحة حول ما يمارسه أبوها في المنزل من عنف لا يتصل بها وحدها، ولكنه يتصل بجميع الذين في الرواية وهو ما يجعل الصورة كلها مقدمة عن طريق منى، ولكن ليست منى وحدها كما سنتحدث بعد ذلك:

"حرم أبو منصور على بناته الوقوف في البرزدة أو السير في الحديقة خوفاً من أعين أبناء الجيران. كان الجيران أعمام وأقارب أبي منصور لكنه لم يكن يثق بصلات القرى"⁸.

"الغضب يصعد إلى عينيه ويديه. ولده وبناته يراقبون. بحركة وإشارات خفية يتفقون على الهرب إلى الحجرة الغربية. يقفون وراء الباب ويراقبون. تسكت أم منصور خوفاً، لكن أبا منصور يصرخ ويسب ويلعن. تطلب منه أن يهدأ.

يختفي والدي، وتتصارع أمي مع ثور تعلق حوافره جسدها. أغلق وأخواتي آذاننا. نعرف جيداً أن حوافره ستتجه إلينا بعد أن تسوي جسدها. نسمع وقع ركلاته فوق جسدها. سقط سن من أسنانها حين اصطدم حذائه بفمها. تهرب أمي إلى الحجرة حيث نجلس. تسمح بكم ثوبها الأسود

القضاء عليها، وهو ما جعلها تخضع لعدد من عمليات التجميل التي جعلها تغير شكلها. وتعود إلى عائلتها فلا يبقى منها سوى صوتها وذاكرتها الأولى حيال أهلها وقومها، ثم تتخرط بعد ذلك ببرامج هيئة الأمم المتحدة المتجهة للشرق الأوسط مما يمكنها من زيارة أهلها وقريتها والوقوف على أحوالهم ومناقشتها معهم وحصولها على احترامهم بالرغم من أنها هي ولكن بشخصية مختلفة.

من النص إلى المجتمع "تعدد السارد واتحاد الرؤية":

تتولى الساردة منى في النص الروائي تقديم حكايتها بالدرجة الأولى، حيث تبدأ الرواية وهي في منزل أهلها بجوار والدها الطريح على الفراش، تتذكر أحداث عمر مضى، يأتي فيها والدها العنيف الأكبر، وهو يمارس القمع والتسلط على جميع من حوله، ولذا فهي لا تقص أحداث حياتها وحدها ولكنها أيضاً تقص حياة أفراد الأسرة المحيطين بها الذين يعيشون معها وهو ما جعل الرواية تمثل نوعاً من مسيرة الأسرة البنية الأولى من بنى المجتمع. وهي من خلال ذلك تخرج لتبين لنا المجتمع كاملاً بعلاقاته بهذه الأسرة، ولأن الأسرة أصبحت مسرودين في هذه الرواية فقد جاءوا على النحو التالي - بالاعتماد على كثرة ورودهم في النص الروائي وتأثيرهم على ثيمتها الأصلية-:

منى:

أبرز الشخصيات في النص، وكانت معظم الأحداث تدور حولها، وقد قامت بمعظم السرد الروائي، ولذا فليس بغريب حين نقول: إن الأحداث قد وجهت في أغلب الأحوال من زاويتها، فهي التي نقلت لنا الأحداث ومجريات الأمور، حتى صورة الأشياء كما تبدو لها. فمنذ الصفحة الأولى في النص ومنى تواجهنا بعرض سريع باستخدام تقنية "التلخيص"⁵، يحكي الصورة التي بدت عليها في الرواية حين تقلبت المرأة في صور نساء ثلاث صنعت منها، تحكي قصتها وحكايتها: الأولى: منى، ابنة الريف والحقول الساذجة ثم مسز مكفيرسون التي بعثت من رمادها والثالثة هي سارا ألكزندرا.

⁵ يسميه بعض النقاد بالتلخيص، وآخرون بالمجمل، وهو كما يذكر جيرار جنيت نفسه ترجمة للمصطلح الإنجليزي: Summary ويقصد به - كما يعرفه جيرار جنيت سرد أحداث أيام أو شهور أو سنوات من الوجود في بضع فقرات أو بضع صفحات. انظر: جيرار جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، الطبعة الثانية، (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1997)، ص108-109.

⁶ عفاف البطاينة، مصدر سابق، ص8.

⁷ المصدر نفسه، ص15.

⁸ المصدر نفسه، ص18.

تعاني من منعه الخروج وتعسفه في الآراء، ومن تقصيره في النفقة، ومسؤولياته، وعدم عدله بين بيتيه¹⁴.

وحيث أنهت الثانوية ووقعت في الخطأ الاجتماعي ضربها أبوها، ومنعها من الجلوس معهم، وشتها بأقذع الشتائم، ثم منعها من الذهاب إلى الجامعة، وحين زوجها من محروس انتقل السرد والقص إلى منزل محروس، وما كانت تلاقيه من تهمة ومنع وتعسف وضرب، وحين انتقلت إلى منزل عمها أصبح السرد مقصوراً على بعض الجوانب في الجامعة ومع حكاياتها حتى انتقلت إلى بريطانيا مع زوجها سليمان، وأتمت حكايتها بعد أن انتقلت إلى أسكوتلندا حتى انفصلت عن زوجها وعلاقتها هناك بالعرب والعمل، والزواج من رجل أسكوتلندي، في الوقت الذي غابت فيه الأحداث والسرد عن أفراد العائلة الأخرى، وكأن لا علاقة لهم بالرواية، ولا وجود، وهم لا يظهرون إلا بعد أن يتصلوا بها أو عن طريق أحداث تتصل بها، وهو ما يحجمهم، وي طرح سؤالاً عن مدى إمكانية قدرتهم على تولي سرد الأحداث.

أبو منصور:

يمثل أبو منصور الشخصية الروائية الثانية من حيث قيمتها، إذ هو بصورة من الصور، الذي أوقع العنف على أغلب شخصيات الرواية وكان سبباً في تعاستهم، فهو الذي كان يضربهم، ويحرمهم من المصاريف، ويمنعهم من الخروج كما يستكثر عليهم أن يعيشوا حياة كريمة جيدة. كما بدا من وجهة نظر منى في المقتطفات السابقة، فهو الذي حرم عليهم الخروج من المنزل، وأجبرهم على البقاء فيه¹⁵، "فلم يعودوا يعرفون الحقول ولا الوجوه ولا الهواء، ولا روائح الشجر"¹⁶ تحول وجوده في المنزل إلى هم ثقيل على نفوس أصحابه، فقد تحول كل شيء فيه إلى شيء من العدم، وقد أصبح غيابه عن المنزل مصدر فرح لأصحابه يبعث فيهم الحركة والسرور والحياة فيه ومن حوله، والسهرة وقضاء الأوقات الجميلة، في حين يمثل حضوره خنقاً للحياة بكل صورها¹⁷.

الذي لم يعرف جسدها غيره دموعها ودمها. تعيد غطاء رأسها إلى مكانه، تجلس وقد وضعت قطعة قماش في فمها لتوقف نزيف الحياة. وجوهنا يحرقها الخوف. ننظر إلى وجهها حيث العلامات الحمر.

منال ترتعش. سناء مفتوحة العينين والفم تضم يدها إلى صدرها. منصور واقف ويد إلى جانبه وأخرى فوق خده، في عينيه غضب وخوف وعجز في البكاء. تقف منى إلى جانبه⁹ "تهرب سناء قبل أن يمسك بذراعها وتحتمي وراء منصور. تصل خيزرانتها، الهدية الخليجية الوحيدة"¹⁰.

ومواضع أخرى حين ضربت منى، وسحقت، وطردت من المائدة لتأكل في المطبخ، وتقضي وقتها في الحمام، ووصفت بأقذع الشتائم، والأوصاف من لدن والدها.

كما أنها نقلت إلينا أيضاً المشاهد التي وقع العنف فيها على الآخرين كما في النص السابق، حين ضرب أبوها أمها، وكما فعل في منصور، ومنال وإخوتها في مواقف لاحقة، بل إن مواقف أسرته من أبيها جاء ووصفهم له أيضاً عن طريق منى، فأصبحت رؤيتها هي الصورة التي ظهرت من خلالها آثار عنف والدهم وقمعه، مع إنها ليست هي النصوص الوحيدة التي من خلالها عبرت تلك الشخصيات عن مشاعرهما تجاه أبيها ومن يسقط العنف عليها ويمارس التسلط: "سمع أبو منصور زوجته وبناته وابنه يتمنون موته عدة مرات في الماضي، خاصة بعد كل انتفاضة من حرياتهم وخصوصياتهم وأمانهم"¹¹. "أقسمت أمي أن تحني بوابة المسجد، وأن تدبح خروفاً يوم يموت"¹². "يرتعش صوت أمها وهي تقول: إن شاء الله بنقبره عن قريب"¹³.

هذا الموقع الذي احتلته منى جعلها مركز الأحداث، وجعل أحداث النص تتطور مع مراحل حياتها، وكأن الرواية حكاية حياتها الشخصية. وليست حكاية متكاملة لأفراد أسرة ومجتمع، فحين ولدت في هذا المنزل وهي صغيرة تشاهد أباه وهو يضرب أمها ويتعسف بمواقفه، ثم أصبحت شابة

⁹ المصدر نفسه، ص 21.

¹⁰ المصدر نفسه.

¹¹ المصدر نفسه، ص 10.

¹² المصدر نفسه، ص 22.

¹³ المصدر نفسه، ص 42.

¹⁴ انظر: المصدر نفسه، ص 16-20.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 18.

¹⁶ المصدر نفسه، ص 17.

¹⁷ انظر: المصدر نفسه، ص 17.

في ظل غياب أبي منصور مدة طويلة في الغربة وحتى بعد مجيئه، وقد بدا من النصوص والشواهد السابقة مقدار العنف الذي وقع عليها من زوجها كما تصف منى وكما يتحدث الأب، فالإي جانب الضرب، والشتم، والاحتقار، والطرود من اتخاذ القرار، والتغيب بوصفها شخصا مستقلا، كانت تصابر لأجل أن توفر لأبنائها حياة كريمة في ظل شح الموارد، فقد جاءت تتسول الأب أبا منصور حتى يزيد المصروف الذي يعطيه إياها وحين تجد أن المال لا يكفي، فتسعى لأجل أن تحافظ على حق أبنائها وبناتها في الدراسة، وتبعدهم عن المشاكل:

- مشاكل الدار خلوها علي، أنا بتصرف، إنتوا اهتموا بدراستكوا، ولما بتوخذوا شهادات، يفرجها الله" ²⁰.

هذه الشخصية الصلبة بدت أولا من خلال موقفها من الأب فيما يتصل بتربية أبنائها وتعليمهم، خاصة حين يكونون في منافسة مع أبناء صرتها، تقول الأم: "حين ينطق زوجي بتلك الجملة، أشعر أن نصيب أولادي من التعليم سيكون مثل نصيبي. لم يسمح لي أخي بالذهاب إلى الكتاتيب، وحرمني من فرصة القراءة أوفك الخط. بنات وأولاد حماتي الذين كانوا يمثل سني، كانوا يخرجون إلى المدارس، بينما أقوم أنا بأعباء الخادمة" ²¹ حتى زوجها فيما بعد قد منعها من الذهاب إلى محو الأمية: "يثور أبو منصور. يضرب ويهين ويسب. عقدت معه صفقة:

خليهم يروحوا عالمدارس ويلعن عظام جدوده اللي يطلب منك قرش أحمر" ²².

ظهرت أيضا من خلال وصف منى السابق الذكر، وبدت أيضا من خلال حديث زوجها عنها حين ذكر أنها قد ذقت من مره أكثر مما ذقت من حلوه، وأخيرا عندما تتحدث هي عن نفسها، مصورة ما قد لقيته من زوجها، ومن أسرة زوجها:

"زوجني أخي وأنا في التاسعة من عمري ولم أبلغ أو يظهر لي ثدي بعد. توفي أبي وأمي قبل أن أبلغ الرابعة من العمر. عشت خادمة لعائلة زوجي. تضربني حماتي صباحا ومساء. أنهض

هذه الصورة تنقلها منى، وهي تجد ما يساندها من حديث الأب نفسه حين يتأمل الناس من حوله وهو على فراش الموت، ويرى زوجته التي يصفها بأنها ذاقت مره أكثر من حلوه، وقد أرهقتها يده ضربا وقهرا¹⁸، لكنه مع هذا لا يقدم الصورة للأشياء كما تقدمها منى، فهو مع كل ما يبدو عليه من جبروت وقسوة، وضرب، يقدم رؤية مختلفة عن الأشياء من حوله، لا تتفق مع الصورة التي تقدمها منى:

"ظننت أنني لن استمر في أبو ظبي أكثر من ثلاث أو أربع سنوات، أجمع فيها ما يكفيني لأبني لعائلي مسكنا وما يغطي تكاليف مشروع يكفل لنا دخلا منتظما. مضت السنوات الواحدة تلو الأخرى وأحلامي تكبر يوما بعد يوم، وقناعتني بما جمعتة تتناقص. أصبح عمر منصور سبعة عشر عاما لم أعرف عنه أو عن إخوته إلا علامات الشهادات التي يحصلون عليها في نهاية السنة الدراسية.

حين أرجع، أجد نفسي موزعا بين عائلتين متناحرتين وأم لا تقنع ولا تشبع. الكل يقول "هات"، والأفواه لا تشبع. اتخذت قراري بأن أرجع وأبدأ حياة جديدة مع عائلي وأقاربي وأهلي. شعرت بفرح غامر حين رجعت وقد اكتمل بناء منزل عائلي الأولى. كانوا على طول السنوات الماضية محصورين في حجرة واحدة، وكنت أشعر باختناقهم بين الجدران حين لا أجد مكانا لفرشتي حين أقضي ليلتي بينهم. أذكر كيف كان منصور ومنال يذهبان إلى النوم في العريشة كي يتسع المكان لي ولزوجتي" ¹⁹.

وبالإضافة إلى مقطع آخر يأتي فيه أبو منصور متحسرا على ما مر من أيام، وعلى مفارقة إخوته ووالدته إياه وتركه وحيدا، نجد حضوره من خلال منى إما بوصفها تسرد الأحداث وتصفها، أو عن طريق نقل حواراته، التي يقولها. هذه المقاطع الحوارية في أغلبها تحكي صورته القبيحة التي رسمتها منى، والتي تتردد بين الشثيمة والقسوة، والفساد، وسوء الظن.

الأم:

وهي الشخصية الثالثة في النص الروائي، فقد قامت بأعباء المنزل كما تولت تربية أبنائها خاصة

²⁰ المصدر نفسه، ص24.

²¹ المصدر نفسه.

²² المصدر نفسه، ص25.

¹⁸ انظر: المصدر نفسه، ص11.

¹⁹ المصدر نفسه، ص13.

نوعاً من النموذج كما تقدمها منى وقد قدم نفسه متحدثاً عن المصيبة التي أصابته حين اتهم ظلماً بخيانة وطنه وهو ما جعله يمضي سنوات غير قصيرة من عمره في السجن.

ثم جاء أخيراً حين رغب أن يخرج من المأساة التي يعانيتها ففكر في أن يتزوج من فتاة أمريكية حتى يخرج من الحالة التي يعيشها، ليكمل حياته من خلال المال الذي يمكن أن يعطيها أيها، وهو ما لم يرق لمنى، ورأت أنه يلغي عمها السابق، فتساءلت: "أين عمي الذي كان يقف إلى جانبي ويجبرني على احترامه؟ ماذا أصاب حتى العاقلين من أبناء بلدي؟"²⁷

وقد بدت هذه الشخصيات من خلال وصف منى لهم أو من خلال مقاطع الحوار التي يوردها السارد لهذه الشخصيات، أما فيما عدا سالم الذي تولى بصورة ثالثة عرض بعض من أجزاء حكايته التي شكلته خاصة حينما كان في الجيش وبعد ذلك بقليل.

أخوات منى وإخوتها:

وكان ظهور هؤلاء في الغالب متسقاً مع موقع منى في أسرتها حيث كانوا هدفاً لقسوة أبيهم وتعتنه في التعامل معهم، وقد كان معظم حضورهم في النص من خلال بعض مقاطع الحوار التي ينقلها السارد، أو من خلال الوصف لبعض أفعالهم، وفي الوقت الذي كانوا هدفاً فيه لقسوة والد منى فإنهم أيضاً قد تحملوا في نفوسهم بعض المواقف تجاه منى خاصة منال التي غارت منها لزوجها قبلها وبررت ذلك بأنها "عاهرة" وهو ما ألم منى وجعلها تشعر بالحزن لظهور هذه الصفة من أختها التي تحبها.

أزواج منى:

تزوجت من ثلاثة أزواج بدأ هؤلاء الأزواج في النص الروائي، كان الزوج الأول محروس الذي خطبها من قبل فرفضته، ثم بعد أن تمت مصيبتها قبلت به، كان هذا الزوج شخصية ضعيفة في يد والدته، ليس لديه قدرة على اتخاذ القرار. وقد جاءت صورته كما في بعض الشخصيات السابقة حيث تقدم من خلال حديث السارد، وحديث منى، وحديثه هو بالإضافة إلى المقاطع الحوارية التي تعبر عن شخصيته، وهو على خلاف مع

قبل الجميع. أخبز العجين الذي أعدته ليلة أمس. قبل شروق الشمس، أحلب الأبقار وأنظف الخان وساحة المنزل وأرشفها بالماء قبل أن يستيقظ أهل الدار. ربيت أولاد حماتي الذين كانت تأتي بهم وترميهم بين يدي. أطبخ وأزرع وأحصد، وإن اشتكيت، طالني "قايش" زوجي قبل حذاء حماتي. جاءت حماتي لي بضرة، لتكسر عيني، حين مضى على زوجي أربع سنوات دون أن أحمل طفلاً. لا أذكر أنني لبست ثياباً مثل ثياب النساء ولا أنني فرحت مثلما يفرحن. كلما ضاقت بي الدنيا أرجع إلى بيت أخي، وقبل أن أطلب مساعدته، تكون زوجته قد عبرت عن ضيقها من وجودي فأرجع إلى بيت زوجي ذليلاً"²³.

ثم هي تظهر أيضاً صورتها من خلال أحاديث منى ليس من خلال وصفها لأفعال والدها سابق الذكر، ولكن أيضاً من خلال حديثها عنها،²⁴ حين لم تزغرد لها كما زغردت لمنصور، أو عندما تنقل بعض الملاحظات حولها حين ترى أنها تدافع عنها فقط لتغيظ جارتها، وكل همها في الحقيقة أن تتفوق على تلك الجارة، "أكانت تدافع عني أم أنها كانت تريد الوقوف في وجه ابن ضرته"²⁵.

وهي أيضاً تمارس العنف ضدها وتحاول أن تقمعه: "هددتها أمها: - صوتك ما بدي أسمعها من اليوم وطالع، فاهمة؟ ظبي لسانك واحترمي حالك"²⁶، وهنا تلغي كل ما فعلته أمها من تضحية بسبب أنها تحاول أن تغيظ جارتها، وليس لأنها ترى أن هذا صواب أو أنهم أبناؤها.

والد أبي منصور ووالدته، وإخوته:

جاءت صورتهم في النص قريبين بشكل كبير من أبي منصور، فهم يجرسونه على كل ما يقوم بفعله، ويشجعونه على ذلك، من ضرب، واعتساف، فالجدة تقسم أن تسيل دم منى لو كانت إحدى بناتها، وعامر ينصحها بأن يحرقها بشوية كاز، وسعيد ينطلق لقتل صادق، ولا يختلف عن هذا المشهد سوى عمها سالم الذي دافع عنها أمام أبيها، وأخذها في منزله، ثم سارع في تسجيلها في الجامعة وكان يساعدها في مواقفها كلها، وقد بدت هذه الشخصية في مواقف متعددة، شخصية تمثل

²³ المصدر نفسه، ص 21.

²⁴ انظر: المصدر نفسه، ص 71.

²⁵ المصدر نفسه، ص 72.

²⁶ المصدر نفسه، ص 78.

النص، الشخصية التي مارست العنف والقسوة على جميع المستويات، سنجدها بالرغم من هذا وبالرغم من شكاية جميع شخصيات النص إلا أنه لم يكن يرغب في ترك عائلته لإبعد أن تعذر العمل في بلده، وبعد أن رغب في أن يقدم لهم حياة كريمة، فقد سئم أن يعيشوا في منزل صغير لا يتسع لهم، ورغب في أن يقدم منزلاً أكبر. وتضييقه في المال عليهم الذي شكوا منه جميعاً كان بسبب ضيق ذات اليد أولاً، وكثرة عياله ثانياً وطلبات والدته، وهو ما صرح به فلم يكن قادراً على الاستجابة لهذا كله، وكان راعباً في أن يوفر لهم وأن يقوم بمسؤولياته تجاه الجميع. حتى ما قام به فيما بعد من ضرب وتعنيف لمنى بعد أن خرجت مع الشاب كان مرده الشعور بالألم لما تسببت به فعلتها، واستجابة للجو الاجتماعي العام بدليل أن جدتها كانت تطالبه بقتلها، وكذلك إخوته عامر وسعيد، وهو ما يعني أنه ليس وحيداً، ولا مختاراً فيما ذهب إليه.

في مقابل ذلك تأتي الأم باعتبارها الشخصية الأولى المعنفة من قبل أبيها وحمايتها، التي زوجت رغماً عنها ثم وقعت في يد هذا الرجل الذي لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، وأمه التي صيرتها شغالة، ثم تحملت مسؤولية الأولاد وتربيتهم ومصاريفهم، بالرغم من شح ذات اليد وضيقها، في هذه الصورة المثالية للشخصية المعنفة المضطهدة الأم، سواء من خلال الفعل الذي يقع عليها، أو من خلال ما تقوله هي عن نفسها من وجهة نظرها. لكن منى لديها وجهة نظر أخرى حين تفسر عملها بأنه ليس رغبة في قضاء الواجب، بقدر ما هو منافسة لضررتها ورغبة في إغاضتها والتفوق عليها عن طريق تفوق أبنائها وهو ما يجعلهم أداة، ويحول فعلها إلى شيء من التشويه المنبذ، كما يقدمها بصورة عنيفة حين تقف في صف والدها ومحروس ليزوجها منه، وتأمرها بالسكوت، ولذا فقد صارت تدرجها في لعنتها التي تحلها على الجميع عدا عمها سالم، وهو ما يعني أن هذه الشخصية قد تحولت هي أيضاً بالرغم من أنها معنفة إلى شخصية عنيفة متسلطة لا تختلف عن الآخرين.

والكلام عنه ينطبق على كل الشخصيات التي في النص في المجتمع فهي تأتي في حالتين من التبئير²⁸ مرة من خلال السارد، ومرة من خلال

الشخصيات الأخرى التي في النص التي تعتمد على القسوة والعنف، لطيف، مهذب، يميل إلى التأمل، والتحنث، ولذا لم يكن محترماً ولا مبجلاً من قبل جميع الذين يقتربون منه، وقد قبل به أهل العروس لأنه نوع من الإنقاذ للحالة الطارئة التي يعايشونها، وكان شكله خاصة الخارجي غير مقبول، وتزوجته منى رغماً عنها بضغط من أبيها وأمها، وحتى تتخذ طريقاً لحياة أكرم، لكنها لم تقدم له شيئاً مقابل ذلك.

الزوج الثاني سليمان وكان في أواخر ثلاثينياته، وقد تزوجها يريد أن يهيء له حياة مستقرة بالرغم من شعوره بعدم مناسبتها، وقد كانت سعيدة فيه في أول الأمر، خاصة وأنه أخذها معه إلى أوسكتلندا، وأعطاهها قدراً من الحرية والحركة لا بأس بها، ولكنه بعد ذلك تحول إلى شخصية نمطية مثل والدها وأعمامها الذين عرفتهم في ضربها، والتضييق عليها وعدم تفهمها، مما دعاها إلى هجره أولاً ثم طلب الطلاق منه ثانياً.

الزوج الثالث وهو صديقها الأسكتلندي الذي كان مشرفاً على مشروعها فترة من الزمن ثم بعد ذلك عمل معها في المشروع وحين تم إعجابها به تزوجته بعد أن عاشت معه مدة من الزمن بلا زواج على الطريقة الأوربية ثم أنجبت منه طفلاً، وقد جاءت صورته بوصفه النموذج الكامل للرجولة والإنسانية من وجهة نظرها والشخص المناسب لها على كل الوجوه. وكان حضوره عن طريق استخدام الطرائق الثلاث الأخرى التي جاءت عليها الشخصيات الأخرى.

وتعتمد تقنية السارد في الأساس على تقديم الشيء الواحد من أكثر من رؤية، مما يعني أن الرؤية الواحدة لا تكتمل ولا تمثل الرؤية الحقيقية التي ستقدمها الرواية، وهو ما نريد أن نقف عليه في هذا النص. حين نتناول كل شخصية مما سبق عرضها من خلال الزوايا المتعددة، نجد أن كل واحدة من هذه الشخصيات من خلال كل زاوية من الزوايا قد احتلت مواقع متباينة، فكما أنها تأتي في حين مضطهدة معنفة، فإنها في الوقت نفسه تأتي وهي تتحدث عن نفسها وقد وقع عليها ظلم، أو أنها لم ترغب أن تقوم بهذا وإنما فعلته استجابة لحالة معينة كانت تعيشها، ويمكن أن نقف عند شخصية الأب الذي مثل العنيف الأكبر في هذا

²⁸ يسمى المنظور، ووجهة النظر أحياناً، وهو يرتبط كما يقول سعيد يقطين: "بأحد أهم مكونات الخطاب السردى"، تحليل الخطاب الروائي الزمن السرد التبئير، الطبعة الثانية، (بيروت، المركز الثقافي العربي، 1993)، ص 283.

الشخصيات في النص المدروس، فهما لا يتسمان بالتعجل الذي تتسم به غالب الشخصيات، كما أنها لا تعلي من قيمة الأشياء التي تعليها الشخصيات الأخرى، ولا تحتقر الأشياء نفسها التي تحتقرها الشخصيات الأخرى، هاتان الشخصيتان هما: سالم، ومحروس.

قدمت منى سالم بوصفه نموذجاً للإنسان الذي حاول أن يدافع عن وطنه، المخلص له لولا بعض الخونة الذين شعروا بالغيرة منه لأنه محل إعجاب أساتذته وزملائه، ولذا فهو يقبع بالسجن سنين طويلة لا يسمح بخروجه بالرغم من توسط كل الذين توسطوا له مع اختلاف مواقفهم الاجتماعية، إذا الإخلاص والاجتهاد يقابله المجتمع بدخول السجن، وهو في مقابل أخيه أبي منصور الذي لا يتوانى عن الفخر بأنه هرب في حرب 67³⁰ بل يعد ذلك من مفاخره، مع ذلك لا يستحيي من فعلته ويرى أن فعله عادي بل الأحمق الذي لم يفعل.

الشخصية الأخرى هي شخصية محروس، وهو لم يبد كما جاء سالم ولكنه يمثل نموذجاً اجتماعياً آخر. هذا النموذج الاجتماعي يتمثل بالشخص اللطيف، المسالم الذي لا يميل إلى العنف في أي حالة من أحواله، وحين ارتبط بمنى كان يسعى لأن يتعامل معها باللطف، والتفهم، ويستجيب لمطالبها، حتى إنه رفض كل ما كان أبو منصور يطلب منه، وما كانت أمه تطالبه، ووقف سداً منيعاً بوجه كل من أراد أن يضرها، وهو ما يعني أنه لم يكن ضعيفاً بقدر ما كان لا يؤمن بالمكونات التي كان يؤمن بها أولئك، والسبب في ذلك أنه شخصية متدينة تؤمن بالقيم الفاضلة، ولا ترى منطقاً فيما يقومون به من إكراه واعتساف للآخرين.

هاتان الشخصيتان كانتا مرفوضتين في المجتمع الذي تنتمي إليهما، يبدو من رفض الشخصية الأولى عدم وجود وظيفة تليق بها عند خروجها من السجن تعيل منه عائلتها وتنقلها من عمل إلى آخر لكسب العيش بالإضافة إلى وصمه بأنه مسجون أو خريج سجون وهو ما يعني أنه أصبح مجرماً في نظر المجتمع لا يقيم له وزناً.

السرد الذاتي وأخرى عن طريق تقنية المشهد²⁹ الذي ينقل الحوار كما هو، حتى سالم الذي يبدو أنه شخصية متميزة ليس من خلال ما ذكرته منى وحدها، ولكن أيضاً من خلال ما ذكره هو من التهمة التي وجهت إليه، وهو ما يجعل الأمر غير واضح.

بل إن منى نفسها التي قدمت في الصورة بوصفها الحالة الكبرى للعنف، والاضطهاد، هي عينها حين نقرأها ونحلل موقفها من الجميع، نجدها قد تحولت إلى ممارسة للعنف حين تعاملت مع محروس معاملة غير جيدة، ورغبت في استغلاله فكانت تعلم أنها لا تريده ومع ذلك لم تر بأساً في أن تستغله وتدفعه لأن يقوم بطلباتها ويقدم ما تريد أن يقدمه.

ومن خلال تقنية السارد المتعدد الذي جاءت الشخصيات كلها مبنية، ومبارة في الوقت عينه وهي ساردة ومسرودة، وفي الوقت الذي تكون فيه ساردة للحدث فإنها تقدم الحدث من رؤيتها وتبرر ما نقلته الشخصية الأخرى، وهو ما يجعلنا نخرج بصورة متماثلة نحو شخصيات الرواية. هذه الصورة المتباينة للشخصيات، توصل إلى نتيجة واحدة هي أن هذه الرؤى المتباينة حول الشيء الواحد، تجعل الإنسان مذنباً وبرئاً في الوقت نفسه، هي في الحقيقة ترجعنا لنقطة الصفر فيما يتصل بتحديد الشخصية العنيفة البؤرة التي يمكن أن نقول إنها عنيفة وحسب والتي هي الأساس في هذا العنف والقسوة والتعسف، وهو ما يعني أن الجميع مذنبون وبريئون في الوقت نفسه مما سحب دائرة الاتهام من الفرد إلى المجتمع بوصفه هو الذي دفع أفراداً إلى هذا السلوك المشين بكل أطيافه، وهو ما يعني أن مع اختلاف زاوية النظر وتعدد السارد، فإن المحصلة النهائية للقضية تكون واحدة بناء على الرؤية التي تؤدي إليها والتي هي هنا مسؤولية المجتمع تجاه ما يحدث.

وحتى تتم هذه الرؤية نجد أن النص الروائي يقدم لنا شخصيتين مغايرتين لما بدت عليه

ويمكن أن نعرفه كما عرفه جرار جينيت بأنه "الصيغة الثانية لتنظيم الخبر" خطاب الحكاية بحث في المنهج، ص 197. باعتبار أن طريقة وقوعه هي الصيغة الأولى، وواضح من الإيجاز في تعريف جينيت أنه لا يريد أن يختار صورة واحدة من صور النظر إلى التنبير بناء على كثرة التعريفات والتقسيمات التي تناولها به الدارسون.
29 المشهد هو الذي "يحقق تساوي الزمن بين الحكاية والقصة تحقيقاً عرفياً" وهو يكون مع التلخيص والحذف والوقف طرائق تقديم الحدث بعلاقتها مع الزمن. جبرار جينيت، مصدر سابق، ص 108.

³⁰ في عام 1967 التقى العرب وإسرائيل في معركة غير متكافئة، وانتصرت فيها إسرائيل، ووقع في يدها كثير من الأراضي العربية. وتسمى أيضاً النكسة، وحرب الأيام الستة. وهي تعد إحدى انعطافات التاريخ العربي المعاصر، وأصاب كثير من العرب بالحسرة والانكسار، وكتب فيها الشعراء القصيد. انظر: حرب 1967، (المركز الفلسطيني للدراسات، مارس 2021).

بهم هو ثقافة المجتمع التي يتسم بها، ويتمسك بها ويوصي بعضهم عليها بعضا بدليل أننا وجدنا "الجامعة" وأسائرتها التي انتقلت إليها منى يقومون بالدور نفسه، فهم يتواطئون ضد الطلاب والطالبات لاستغلالهم ماليا وجسديا، وقد عانت منى من هذه الحالات مع أستاذ العلوم السياسية الذي عرض عليها الدرجة التي تريدها مقابل أن تخرج معه لشرب الشاي، والأمر الأسوأ أن يكون عميد الكلية ومدير الجامعة متواطئين معه ويدافعون عنه وهو ما يعطي دلالة عن مدى السوء الذي وصل إليه المجتمع بتورط الجامعة التي ينبغي أن تكون منبع القيم والأخلاق في هذه الرذيلة الاجتماعية.

ومن الممكن القول إن هذه السلوكيات ليست من العادات في شيء ولكنها سلوكيات خاطئة يتخلص المجتمع منها بالوعي، فهي لا تعد في ثقافة المجتمع، ولكن الحقيقة أن هذه السلوكيات أصبحت نوعا من المقدس في المجتمع كما أصبحت تدل عليه كما هو الحال في الجماعة التي تعيش خارج المكان حين يسمها دون غيرها من الأمم، ويصاحبها أينما كانت حتى حين تخرج من الظروف المحيطة بها، وتصبح تعيش ظروفها غير الأولى، فتتصف بالصفات نفسها، وتقوم بالفعل عينه، وهو ما يحول هذه السلوكيات المتخلفة من عادة وثقافة يمكن أن تتغير إلى سمة خاصة بهذه الأمم تعبر عنها وعن تكوينها.

يتمثل هذا بحال المجتمع العربي الذي عايشته منى بعد الهجرة إلى أسكوتلندا، فزوجها سليمان لا يختلف عن أبيها وأعمامها الذين يرون المرأة، والزوجة لقضاء الحاجات الجسدية ولتقوم بأعمال المنزل: "لم أكن أعرف أن وحدتي كانت تنتهك معايير الزوجة المثالية التي أرادها سليمان. لم أعد خادمة ولا مومسا ولا لعبة، ففشلت في تأدية الأدوار التي تزوجني لها"³³، وقد كرر على مسامعها مقولات من مثل: "ولك المرة شو إلها غير بيتها وجوزها، أنا ما قصرت معك"³⁴ "وحضرتك مين يصرف عليك وإلا علي أذفح ويس"³⁵، و"جوزتك لأنك رخيصة، وبعدك رخيصة ورايحة تظلي رخيصة حتى تموتي، وهذا اللي ابطنك رخيص مثلك ولا يمكن يعيش ويحمل اسمي"³⁶،

وأما الشخصية الثانية فهي محروس والذي ظل موضع سخرية واحتقار من كل من في القرية حتى من منى نفسها الذي رفضته في بداية الأمر نظرا لما يتسم به من سمعة سيئة: "حين نظرت إلى وجه محروس، كان أكثر غرابة وقبحا مما تخيلت جسده الذي بالكاد يدخل من باب المنزل يجعلني أشعر أنه فيل أو بقرة لا بشر. دفعت ثمن رفضي أمام عيني محروس. ضربني والدي. شتمني وقال إنني لا أستحق حتى محروس"³¹ هذه الجملة المفيدة التي في آخر النص المنقول تعطي الانطباع الكامل عن المنزلة التي يحتلها محروس وهي انتهاء الغاية في الانحطاط وسوء القيمة، والأمر اللافت للانتباه هو اتفاق هاتين الشخصيتين في الاسم فالأول "سالم" وهو السالم من كل داء وعيب، والآخر "محروس" وهو الذي حرس من أن يصيبه شيء بالرغم ما تحمله هذه الكلمة من إيحاء بالتقليل من القيمة وتهوين الشأن.

هذا الموقف من المجتمع نحو هاتين الشخصيتين المغايرتين هو نوع من الإدانة للمجتمع ككل، باعتبار أن ما كانت تقوم به شخصيات النص ليس عملا فرديا ولكنه عمل جماعي يقبله المجتمع ويعلي من مكانته بوصفه العمل الصواب، الأمر الذي يدل على فساد ذوق المجتمع الذي يعلي من قيمة العنيفين الفاسدين، ويضع من قيمة المخلصين العفيفين المتقين.

من المجتمع إلى الثقافة إلى الهوية:

يمثل الفعل الذي يتسم به كل مجتمع جزءا من ثقافته³²، ولذا ليس أمرا غريبا أن يعد ما يدور في هذا النص من فعل عاكسا للثقافة الاجتماعية التي يعيشها، ولذا وجدنا بيانات المجتمع المختلفة تتسم بهذا الفعل، وتبتعد عن الفعل الآخر الذي يمثل المنطق والعقل والحضارة، وهو ما يعني أن فعل العنف، والتسلط، والقضاء على الآخرين والسخرية

³¹ المصدر نفسه، ص 80.

³² تتعدد تعريفات الثقافة، فمؤلفو كتاب نظرية الثقافة يعدونها "القيم والمعتقدات المشتركة"، عالم المعرفة، 223، الطبعة الأولى، (الكويت/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997/1418)، ص 31، في حين يعد حسين مؤنس الثقافة "ثمرة كل نشاط إنساني محلي تابع عن البيئة ومعبر عنها أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك". الحضارة، عالم المعرفة، 237، الطبعة الثانية، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998/1419)، ص 370. فالعلاقة بين العادات ولتقاليد والثقافة أمر لازم كما العلاقة بين الثقافة والهوية، إلا أن السؤال عما يجعل هذا السلوك من العادة التي تعبر عن الجماعة أم أنه سلوك فردي لا يتجاوز من قام به، ثم عن اتخاذ هذا الفعل دالا على الهوية، وهذا الأمر سواء على مستوى الفعل أم على مستوى النص أمر كما يرى كليفورد غيرتزر - سيميائي، فتحليل الثقافة "يجب ألا يكون علما تجريبيا يبحث عن قانون بل علما تأويليا يبحث عن معنى"، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، الطبعة الأولى، (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص 82، وهو ما سارت عليه هذه الدراسة.

³³ عفاف البطاينة، خارج الجسد، ص 242.

³⁴ المصدر نفسه، ص 243.

³⁵ المصدر نفسه، ص 258.

³⁶ المصدر نفسه، ص 249.

وهنا نجد أن المجتمع العربي في أوروبا لا يختلف عن المجتمع العربي في كل مكان وكأنها لم تفارق وطنها، تقول منى:

"فتحت أمامي البيوت العربية التي حملت معها كل شيء عربي إلى أستراليا. اللغة والطقوس والتقاليد الاجتماعية والحرام والحلال. كنت أشعر بالذنب حين أعد وجبة تتضمن اللحم أو الدجاج المذبوح على الطريقة "العربية"، والتي إن سئلت عن مكان شرائها، تؤكد أنها من محلات الباكستانيين، وأنها على الطريقة الإسلامية. حتى الأدوار العربية للرجل والمرأة حملت إلى هنا"³⁹.

بل نجد أبعد من ذلك حين نجد أن المجتمع العربي هناك يسعى جاهداً لأن يحكم الإغلاق على نفسه فلا يكتفي بنقل كل مكونات المجتمعات العربية، ونظام حياتها إلى بلاد الغرب بل إنه يزيد بعد ذلك من إقامة عداوة مع المجتمع الأصلي يتظاهر أنه يكيد له، ويحاربه مما يمثل حصاراً على الذات من التعامل مع الآخرين أو التداخل معه في حين أنه هو الذي استضافه، وجعل له موقعا خاصا في نفسه، وفتح له فرصة العيش والاستقرار، فكيف يتحول إلى عدو يحاربه:

"حدثت أم منار عن كل ما يدور بيني وبين سليمان. ونصحتني بالهدوء وبررت غياب سليمان وانشغاله بالضغط التي يتعرض لها من قبل الأستراليين، أو "أولاد الحرام كما وصفتهم"⁴⁰.

والموازنة اليسيرة بين مكونات المجتمع العربي في الوطن والمجتمع العربي في المهجر يجد أن سليمان يقابل والدها، والمدرسة التي تعمل بها تقابل المؤسسة الرسمية التي لا تقبل للمرأة وجوداً إلا بإذن زوجها، في حين العادات والتقاليد والعيب وغيرها جاءت بها الأسر معها. أما الدار التي تجتمع بها النساء فهو يقابل الجامعة في البلاد العربية التي تحيط بها القدارات من كل جانب القدارات الحسية والمعنوية، هذا الربط الدقيق والمقصود بين المجتمعات العربية في المهجر وفي أماكنها يدفعنا إلى القول إن الرواية تتجاوز القول بوصف الفساد وتعريفه لكشفه وإصلاحه إلى القول بأن عدم الاختلاف بين المجتمع الكبير والمجتمع الصغير الذي انتقلت إليه، وحرص المجتمع الصغير على المحافظة على عاداته، وتقاليد، وقيمه التي جاء فيها يعني أن هذه العادات والتقاليد

بالإضافة إلى الضرب الذي كان يقوم به عند كل سبب حتى إنها بدأت تتذكر أباه وأعمامها: "الأشياء أصبحت أكثر وضوحاً وإيلاماً عندما صغني سليمان. أسمع صوت بكائي بين الجدران وأشعر بالانكسار يحاصرني. أتخيل والدي يضحك وأضع وجهه سليمان إلى وجه والدي. ألاحظ أن فارق السن بينهما لم يكن إلا بضع سنوات"³⁷.

وحين تضطر للعمل حتى تحافظ على كرامتها من شتائم سليمان، وتكون الاستقلال المادي الذي يحفظها وابنها، فلا تجد إلا مدرسة عربية بأجر زهيد، تجد هذه المدرسة تتواطؤ مع سليمان ضدها وتستغني عن خدماتها، ومدير المدرسة العربي الذي نشأ في أستراليا يقول لها بصراحة: "جوزك ما يريدك تشتغلي. كل رجال حر بحرمته. إن كان جوزك ما يريدك تشتغلين، اقعد في بيتك ولا تجيبيلنا وجع الراس. أنا ما برظيني إنه حرمة تطلع على شور رجلها بسببي"³⁸.

وفي هذا المقطع تبدو المؤسسة الوليدة فيما وراء البحار تتبنى قواعد المؤسسة القديمة في المكان الأصلي، فتتحول إلى مؤسسة قامعة لأفراد الجماعة، فتراعي حقوق فئات على فئات بناء على اعتبارات غير منطقية، فهي تؤكد عدم انتمائها إلى المكان المحيط بها بقدر انتمائها إلى المكان البعيد من خلال التمسك بعاداته، باعتبارها هي المكون الشخصي الحقيقي، وهي التي ينبغي أن يتمسك بها لأنها تكون الذات، بعيداً عن ظروف المكان المغيرة تماماً والتي تقدم مجالاً للحوار، والاختلاف والتسامح.

والمكان الذي تجتمع فيه النسوة العربيات من كل أنحاء العالم العربي، يندرسن القرآن وبعض قضايا الفقه وأمور حياتهن تجتمع القذارة من حوله من كل جهة والأثاث القديم، والأجهزة الكهربائية التالفة، وفي الداخل يعج بالنساء والأطفال الذين يتقافزون على كل شيء مما حولهم، بل إن الفئران تتراكم تحت الأثاث هاربة إلى إحدى الغرف المقلقة دون أن تثير أحداً من الجالسين.

³⁹ المصدر نفسه، ص 245.
⁴⁰ المصدر نفسه، ص 247.

³⁷ المصدر نفسه، ص 250.
³⁸ المصدر نفسه، ص 259.

هذا السؤال مبني على السؤال الأول الذي سنكشف عنه الدراسة في المبحث اللاحق.

من الآخر إلى الأنا:

رفض سلوكيات المجتمع العربي وما فيه من تخلف في البلاد لايعني القبول بها حين يتغير المكان، لأن الموقف ليس من المكان بقدر ما هو من الفعل، وهذا الذي حدث مع شخصية الرواية فحين تبين لها أن المجتمع العربي هناك لا يختلف عن المجتمع العربي هنا، وأنها لم تعد أن خرجت من مجتمع يتبنى هذه السلوكيات بوصفها حقيقته المكونة له ونابعة منه، إلى مجتمع آخر مشوه، مقلد يحاكي مجتمعا كبيرا متمركزا حول ذاته، وكأنها ذهبت إلى دائرة ضيقة متفوقة على نفسها تخشى أن تذوب مكوناتها الجوهرية، ولذا فهي تعيش على الهامش وسط القذارات والأثاث القديم المتراكم حتى لا يهتدي إليها إلا من يعرفها، وتعيش حالة صراع داخلي حتى تحافظ على جوهرها وكيونيتها:

"بحثت عن [الدار] طويلا قبل أن أجدها. لم يعرف مكانها أحد حتى أولئك الذين يسكنون بجانبها. لولا وصول إحدى النساء...، لما اهتديت إلى المكان ولا المدخل. الكنيسة التي تحولت إلى [الدار] محاطة بالقمامة، والأثاث القديم والأجهزة الكهربائية التالفة وغيرها مما تقشعر له النفس"⁴².

وهو ما فعلته شخصية الرواية الرئيسية حين رفضت الانضمام إلى تلك النسوة المجتمعات حول القذارة، ورفضت كذلك زوجها سليمان وما يقوم به من أفعال لا تختلف عن والدها، فبدأت ترفض تشيبتها، وترفض أن تتحول إلى متاع أو بضاعة وأداة أتى بها لحاجة، وتخرج عن الاستجابة له والرفض وتتحول إلى شخص ند له، فحين يهملها ويهمل في طريقة تعامله، ويحيل المنزل إلى مكان للأكل والنوم، تتوقف هي عن أداء عملها تجاهه، وحين يحترقها ويشتمها ويضربها ترفض أن تتنازل عن كرامتها وأن تستسلم له ولأفعاله المشينة، ولم تستسلم لمحاولته سلبها من معناها أو تحويلها إلى دمية في يده:

"رفض أن أخرج... رفض أن أعمل. رفض أن نزور المدن المجاورة، صار يذكرني بالمصاريف وضيق

ليست مجرد عادات وتقاليد، ولكنها أيضا ثقافته، وأنه يرى أنه بخسران هذه الثقافة سيخسر تميزه، ثم سيذوب في المحيط الأكبر، وهوما يعني أن هذه العادات والسلوكيات قد تحولت إلى أداة للحفاظ على الجماعة ووجودها في هذه الفئة، الأمر الذي يعني أن هذه الممارسات هي جزء من هويتها، بل يعني أنه يحقق هويته وانفراده من خلال هذه المعطيات الثقافية المحلية، وكأن الرواية تعيد صياغة ما قاله ولتر بين مايكل عن رواية الولد الضاحك: "حتى تكون من شعب النفاجو، لا يكفي أن تكون ولدت من أبوين ينتميان إلى هذا العرق، ولكن لا بد أن تتصرف كما يتصرفون"⁴¹ وعلى هذا فحتى تحافظ على عربيتك لا بد أن تتصرف كما يتصرف العرب في أوطانهم، وتعيش كما يعيشون. وحين تكون هذه المكونات جزءا من الجماعة هنا، فإنه يعني أنها جزء من مكونات هويتها في المجتمع الأصلي الكبير.

هذا الحرص على التمسك بالعادات والتقاليد، وكل تفاصيل مكونات الذات التي سبق الحديث عنها، يعني أنه يرفض أن يتحول إلى كائن ذائب، ويظن أن هذه المكونات ستحفظ له نقاءه، وموقفه الأول، وهو ينسى أن المجتمع المحيط به يغزوه من خلال وسائل الإعلام، ومن خلال مؤسسات المجتمع الأصلي المحيطة به، ومن خلال الذات حين تمارس عنفا على نفسها، يمثل أكبر الأدوات المهددة لوحدة البنية الاجتماعية وتماسكها من خلال لجوئهم إلى مجتمع الآخر، ومؤسساته الاجتماعية النافذة والنافعة في الوقت نفسه. وهذا ما حصل لشخصية النص هنا: منى حين هربت من عنف زوجها، ومعاملته السيئة لأجل أن تبحث عن الخلاص مما هي فيه من خلال الدخول في مجتمع الآخر، وحين بحثت عن الخلاص ووجدته رغبت فيه لمجتمعها أيضا.

وهنا يأتي السؤال عن الخلاص الذي تطرحه الرواية عن طريق ما فعلته الشخصية الرئيسية منى، ويتصل بمدى إمكانية تغيير هذه الصفات مع الحفاظ على الهوية أم لا بد من تغيير الهوية لنبتعد عن هذه المكونات، هذا أولا ثم عن ملامح هذه الشخصية التي تريد أن يبشر بها النص. جواب

⁴² عفاف البطيانية، مصدر سابق، ص244.

⁴¹ Walter Benn Michael, Race into Culture: A Critical Genealogy of Cultural Identity, p.672.

في هذا الجزء من العالم الاجتماعي تعرفت على الأشياء من جديد ابتداء بنفسها حين وقفت على حقيقة مشكلتها، فمن خلال لقاءها بالطبيبة النفسية وسؤالها المهمة أجابتها بحدة وبصراحة عن الأزمة الحقيقية التي تعيشها، فأسرتها ليست هي أزمته، أزمته هي أنها لا تعلم ماذا تريد، وهذا الذي أصابها بالاستغراب أن تكتشف حقيقتها، وبناء على هذه المعرفة بدأت تعيد صياغة حياتها، كما بدأت تكتشف وجهاً آخر للحياة يقوم على النظام والدقة في ترتيب الأشياء: "في نهاية الشهر الثامن، علمتنا الممرضة كيفية تغيير الحفاضات، وحمام الطفل، وتعقيم زجاجات الرضاعة، وتنظيف وجه الوليد وحبله السري. حدثنا عن الكريما التي تقي بشرة الطفل من الحساسية...كدت أضحك وأنا أتعجب لاهتمام هؤلاء بأصغر الأشياء وأدق التفاصيل"⁴⁷. كما يقوم على الاحترام وذلك من خلال ماتراه من زميلاتها في فصل ما قبل الولادة، "في رحلة تسوق لطفلينا، سألتني عن زوجي، واعتذرت إن كانت تتدخل في شؤوني الخاصة"⁴⁸.

والحب، وسيادة القانون وحب العمل، والرغبة في مساعدة الآخرين وليس استغلالهم، والبحث عن الحلول العلمية للمشاكل التي تواجهها: "حشنتي إيلين على زيارة الطبيب وطلب المساعدة حين اضطرت إلى حمل آدم وأنا صامتة أنظر إليه وهو يصيح ويصرخ. رفضت أن تغادر بيتي إلا حين رافقتها إلى العيادة"⁴⁹.

كما يبدو سيادة القانون وحماية الضعفاء من موقف الشرطة المحلية حين اتصلت بهم تستجد من عنف زوجها سليمان وضربه لها، حيث قامت بحبسه يوماً وأخذ تعهد عليه⁵⁰ جعله يغير طريقة نظرتة لها، وتعامله معها، ويضطر إلى جعل اعتبار لها من خلال تعامله. كما تبدو رغبة المجتمع في مساعدة الناس الراغبين في العمل بعيداً عن الاعتبار لألوانهم أو ثقافتهم من خلال استقبال "مكتب نصح المواطنين" الذي وجهها إلى مركز يقيم دورات لمن يريد أن ينشئ مشاريع خاصة. هذا المجتمع هو الذي تصف أم منار أفرادهم بأنهم أولاد الحرام في مقتبس سابق.

الوقت. شعرت أن سليمان يحاصرني من كل اتجاه.. تجاهلت اعتراضاته"⁴³.

كما رفضت توجيهات أم منار الفلسطينية التي لا تختلف عن توجيهات أمها في موقفها من أبيها: "بذك تصبري وتنازلي شوي". قالت أم منار وأنا أنظر إليها غير مقتنعة: ما تطلعي في هيك، أنا عارفة شو بحكي، كبري عقلك وصالحي جوزك وبلا قلة عقل. المرة ما لها إلا جوزها"⁴⁴.

ومثلها مثل سائر النساء العربيات اللاتي كن يوصيها بالوصايا عينها التي كانت أمها توصيها بها، ويكشفن عن السعي لإرضاء أزواجهن، وأن هذا هو الهدف الوحيد من الحياة ويكفيهن لأن يمثلن سعادة⁴⁵.

والدار التي كانت مكرهة على الذهاب إليها لتجد أحداً تتحدث إليه توقفت عن الذهاب إليها بعد أن وجدت من يؤنس صحبتها، وبدأت بالدخول إلى العالم الآخر، وكان ذلك من خلال فصل التدريب على التعامل مع الطفل في المستشفى، إذ قابلت إيلين التي تحضر دروس ما قبل الولادة وأقامت معها صداقة حيث التقت بالمجموعة خارج الفصل لتبادل المشاعر حول الولادة⁴⁶، صارت هي الطريق لدخول عالم الأسكوتلنديين حيث تبع ذلك اتصالات ولقاءات مع نساء المجموعة، تبعتها الاتصال بالطبيبة بناء على نصيحة إيلين لتسكو إليها حال ابنها الوليد وسبب عدم توقفه عن البكاء، وهو ما أوصلها إلى الإحصائية النفسية التي نصحتها بعد ذلك بالاتصال بمركز نصح العاملين وهو ما جعل علاقاتها بالجانب الآخر تتعزز، وعلى إثره تقل بالنساء العربيات الذي كمل حين انفصلت عن زوجها، وأقامت بمنزل مستقلة مع طفلها وهو ما ترفضه التقاليد العربية التي جاءت على لسان أمها وإخوتها من وراء البحار وصدقته النساء العربيات اللاتي قطعن الاتصال بها وزيارتها بعد استقلالها، وقد صرحت أم منار أن ذلك بناء على طلب زوجها.

⁴⁷ المصدر نفسه، ص246.

⁴⁸ المصدر نفسه، ص247.

⁴⁹ المصدر نفسه، ص269.

⁵⁰ انظر: المصدر نفسه، ص258.

⁴³ المصدر نفسه، ص246.

⁴⁴ المصدر نفسه، ص247.

⁴⁵ انظر: المصدر نفسه، ص287، 295.

⁴⁶ انظر: المصدر نفسه، ص262.

وترددها الذي جعلها لا تعرف بالضبط ماذا تريد أن تفعل: "قد يكون سليمان وأدم جزءاً من مشكلتك، الجزء الأكبر هو أنك لا تعرفين ما تريدين. اذهبي وفكري وحددي أهدافك. اعرفي ما يسعدك وما يزعجك وما تطمحين إليه، مشكلتك نابعة من ذاتك"⁵³. ومن هنا جاءت رغبتها في إعادة فهم واقعها الأول ومعرفة الحقائق التي دفعتها إلى ذلك.

وحين عرفت نفسها بتأثير هذه الكلمات ومشكلاتها، انطلقت أيضاً تتعرف على ذاتها الكبرى وتشخص مشكلاتها عن طريق المقارنة بين ما تراه أمامها من فعل الأوربيين وما يفعله العرب سواء في أوسكتلندا أو في بلادها العربية وذلك واضح في تصويرها المشاهد المتاحة، فمنى العربية لم تخفف أبداً وهو ما كشفه ضمير اسم الإشارة حين قالت: "كدت أضحك وأنا أتعجب لاهتمام هؤلاء بأصغر الأشياء وأدق التفاصيل"، فالمقارنة حاضرة في كل مكان ابتداء من حضور أزواج النساء إلى عيادة الطبيب للمراجعة والعمل ثم حضور تدريبات ما قبل الولادة في ظل رفض سليمان للولد منذ البدء، إلى عند ساعة ولادة الطفل وتسميته حين كان أزواج صواحبه حاضرين في الوقت الذي كان سليمان يصر على عدم قبول الولد ويقضي وقته بعيداً عن المنزل وانتقالاً بعد ذلك إلى المشاركة في العمل.

هذه المقارنة قد تكون مباشرة كما في المقاطع السابقة، وقد تكون مضمرة وذلك من خلال الوقوف عند التفاصيل الدقيقة الحاضرة في المشهد المنقول من خلال السارد، وهو الغائب في المشهد المنقول في الواقع العربي سواء كان ذلك الأصلي أو في المهجر على طريقة أياك أعني واسمعي يا جارة وذلك فيما يتصل بجوانب الحياة المختلفة كالنزاهة أو المسؤوليات، وتعاملهم مع النساء والمرأة على وجه الخصوص مما قد ذكرت وجهاً منه قبل، وهذا مقطع يبين الموقف بشكل أكبر:

"في أول المساء، بدأ ستيروت بإعداد العشاء بينما قمت أنا والأطفال بترتيب حجرات المنزل وإعادة الألعاب إلى مكانها. تناولنا العشاء. ساعدني ستيروت على تنظيف أواني العشاء وإعادتها إلى مكانها. لعبنا قليلاً مع الأطفال قبل أن أصعد معهم وأعددهم للنوم. طلب منه الأطفال أن يقرأ لهم قصة. دخل كل منهم فراشه. طلب

كما تعرفت على حب العمل، وطعم النجاح، وقيمة الاجتهاد، فحين بدأت مشروعها أصبحت تسير فيه بخطوات دوّوب، يراعيها السيد المشرف المعين عليها من قبل المركز التجاري للإشراف على مشروعها وتقديم النصائح اللازمة، دون أن تجد منه ما يمكن أن يعد استغلالاً لحاجتها، أو التهور من كرامتها والرغبة في الاستمتاع بها كما كان يفعل أساتذة الجامعة هناك مستغلين فقرها، وبالرغم مما كان يكنه لها من حب وتقدير وإعجاب، وقضاء الساعات الطوال منفردين فإنه لم يكن يخرج في حديثه عن العمل وظروفه.

والتقت بالوجه الآخر للصدقة الذي لا يقوم على الكذب والعش من خلال صديقتها إيلين التي كانت تجلس معها في كل مكان، وجارتها كارول مع زوجها اللذين أصبحا قريبين لها ولابنها آدم، يشاركانهما كل المناسبات الاجتماعية واليومية، في مقابل زوجها سليمان الذي كان يتمنى لها أن تقبل وأن تسقط كل يوم: "كان دائم التحذير من اندفاعي وتحلمي تكاليف لست أستطيع تعويضها...كنت أدهش حين يسألني عن التكاليف أو الأرباح أو النفقات وأدهش أكثر حين يقول: "الأيام بينا"⁵¹.

وقد جعلها هذا كله شخصية جديدة مختلفة عما كانت عليه من قبل: "أحببت المرأة التي صرتها. أحب اعتمادي على نفسي وخروجي إلى مدارات الحياة"⁵².

وعلى الرغم من رفضها لمجتمعها السابق سواء كان ذلك على المستوى الكبير في المشرق أو في النسخة التقليدية في المهجر، فإن ذلك لا يعدو أن يكون موقفاً احتجاجياً لا يعتمد على فهم الأنا ومعرفة مكوناته الحقيقية واتخاذ موقف معين يقوم على فهم الأسباب الدافعة وراء ذلك، هذا الذي حصل من خلال اتصالها بالآخر ومعرفته معرفة قريبة والاطلاع على نموذج جديد للحياة، وطريقة أخرى للنظر إلى الأشياء، كان أول ما ظهر هو معرفتها بنفسها، فليس غريباً بناءً على ذلك أن يكون مصدر إعادة تقيّمها لنفسها وسبب حزنها، ويؤسها من الإحصائية النفسية الأوسكتلندية التي ذكرت أن أسرتها أو زوجها أو ابنها ليسوا السبب فيما تشعر به، وإنما السبب الحقيقي هو حيرتها

⁵¹ المصدر نفسه، ص 280.

⁵² المصدر نفسه، ص 282.

⁵³ المصدر نفسه، ص 272.

وتركوا فلسطين تسقط بأيدي الغزاة، وتحمد الله أن الأمر لم يتجاوزها إلى سائر البلاد العربية⁵⁶، الأمر الذي يجعلها تستخلص أن حالة أبيها هي محصلة حتمية لهذا الانكسار الذي أصاب الأمة العربية ككل، وأنه فقط إشارة إلى جوانب أخرى، وأن الذي تعيشه أسرته لا يتصل بالغنى والفقر، ولا بالعلم والجهل، ولا بالقوة والضعف، فهو شامل لكل النماذج؛ فالأغنياء يوقعونه على الفقراء، والعلماء يوقعون هذا القبح على الجهال، والرجال يوقعونه على النساء والقائمة تطول، وهو ما يعني أنه يتصل بالعرب أنفسهم.

هذا الانكسار الذي أصاب والد منى بسبب هزيمة 67 كان انكساراً للرجولة العربية وقد جاء الربط بين الرجولة والفحولة في حالة محروس زوجها الأول الذي حين رغب أن يغتصبها في ليلة زواجها قصدت علامة الذكورة وأصابته في عاهته جعلته يخاف ويبقى ويتراجع عن كل اتصال إيجابي دليل على العجز من الفعل الإيجابي السليم.

وحيث قررت منى أن تبقى في أسكتلندا، وتبدأ حياة جديدة أدركت أن ماضيها وأسرتها لن يقبلوا لها إلا أن تعيش كما هم أو كما يريدون، وهو ما لا تقبله حيث بدأت تخط لنفسها خطاً جديداً يقوم على نظام الحياة الأوربية بدليل أنها سمت ابنها آدم وهو الاسم الذي أنكرته عليها أم منار بوصفه اسماً غير عربي وقالت: "وليكن"⁵⁷ وكأن العرب والعروبة آخر ما يمكن أن تفكر فيه. هذا الالتحاق بالحياة الحضارية التي وصفتها من قبل جعلها في صدام مع العرب والعروبة إما أن تختار قومها وطريقة عيشهم أو أن تلتحق بالآخرين وحضارتهم مهما كلفها ذلك، وقد فعلت حين رأت أنها لن تتمكن من ذلك إلا بتغيير شكلها، وصورتها واسمها حتى تصبح امرأة أخرى لا علاقة لها بهم، حتى إنها دخلت منزلهم فيما بعد معنية بشؤون المرأة في العالم الثالث، وأكلت من طعامهم، وشربت شرابهم دون أن يدرك أحد أنها الأولى، وهو ما يعني أنها تبدل هويتها بهوية أخرى أوربية لأجل أن تحافظ على قيم الحضارة والعدل والبناء، وتتجو من قيم التخلف والقهر، وقد كانت بذلك مدفوعة دفعا من خلال شخصيات الرواية وحوادث القتل التي تقع

وليام لعبته "سبوتي" التي ترافقه حيثما ذهب. غطيت الأطفال وانصرفت تاركة ستيورت يقرأ لهم ما شاءوا"⁵⁴.

هذه المعرفة للأنا عن طريق الآخر، وحضور الأنا في الآخر جعلها تعيد قراءة الماضي من جديد وتتعامل معه مرة أخرى، بصورة مغايرة لم تكن موجودة لولم تعرف الآخر، وهو ما نجده في ملامح الأنا المذكور في الرواية، فالنص أو الوصف والسر الذي قامت و قدمته منى كان قد حدث ليس بعد أن انقضى بأزمان وحسب، ولكن بعد أن تعرضت لتجربة مغايرة تمام المغايرة، وهو الأمر الذي أثر على سردها لقصتها منذ البدء فكان موقفها من أبيها بالرغم أنها كانت تسبه وتشتبهى أن تقضي عليه، فالنوع والكلمات والشتائم القذرة التي أطلقها أبوها عليها كانت أكثر بكثير من النوع التي أطلقتها هي عليه وهي تقص القصص، وتسرد الحكاية، بل إن موقفها من أبيها ومرضه قد تغير بشكل كبير في النص الروائي ليس في أيام كانت في بلادها، وبعد أن عادت وإنما بعد أن عرفت بمرض أبيها من والدتها بعد ولادتها مباشرة إذا كان جوابها: "الله لا يرده"، بعد أن قالت: "تعجبت من القسوة التي أخذت تجد طريقها إلى قلبي وأنا أسمع صوت أمي وهي تشكو من حالها وحال العائلة"⁵⁵.

بالرغم من ذلك فإنها فيما بعد قد ألحت على أمها لعرض والدها على أطباء، والبحث عن طبيب يعالجه، ويكشف عليه ويساعد في تخفيف آلامه، بل إنها تعهدت لأمها بأنها هي التي ستقوم برعايته إذا جاء إلى المنزل معفية أمها من هذه المسؤولية، ولم تف بما كانت تود أن تقوم به في زمن مضى، هذه الرؤية لأبيها، ولأمها ولمن حولها ما كان لها أن تتغير لولا أنها عاشت تجربة أخرى، وعرفت حقيقة ما يدور، بدليل أن أمها وأخواتها اللاتي لم يخرجن لم تتبدل صورته عندهن، وظلن يتمنين أن يموت في كل لحظة ليتخلصن من العذاب الذي سامه إياهن، فقد ظلن ينظرن إلى الموضوع برؤية تقليدية تقوم على العنف والانتقام وثقافة الثأر التي إذا بدأت لا تنتهي، فلم يكن لها أن تعيد تحليل شخصية والدها وتربطه بهزيمة 67 التي كان واحداً من جنودها البواسل الذين فروا من أرض المعركة

⁵⁶ انظر: المصدر نفسه، ص 60.
⁵⁷ المصدر نفسه، ص 268.

⁵⁴ المصدر نفسه، ص 345.
⁵⁵ المصدر نفسه، ص 270.

التشردم على مستوى الزمن يتبعه تشردم في مستوى الحدث أيضاً، فالقارئ/المتلقي تتداخل لديه الأحداث، ولا يبدأ بتصور الأحداث المستقبلية، وقد يربط بينها مقترحا أحيانا مجريات للحدث مغايرة لما سارت عليه الرواية. هذا التشردم في الزمن، وتداخل الحدث يجعل كل حدث ينفصل عن الآخر، ويستقل عنه، ويمثل وحدة سردية مستقلة، فهو ليس مرتبطا بما قبله ارتباطا سببيا، ولا تتابعيا، وإنما مرتبط بناء على ذاكرة المتلقي بأنه وقع بعده، ومراجعة تفاصيله، وهو ما يجعل من هذه المقاطع السردية قسما يعتمد على القراءة والتحليل.

هذه التقنية السردية التي سارت عليها الرواية أكسبتها نوعا من التداخل الذي ضاعت معه ملامح كل جزء. وإذا كنا قد قلنا في وقت سابق أن النص يقيم هويتين منفصلتين، تمثل كل واحدة منهما كيانا مستقلا، له ملامحه وتفصيلاته، وبينهما برزخ لا يبغيان، فإن هذا التشظي⁶⁰ في الزمن أكسب هاتين الهويةتين نوعا من التمزق، وليس التداخل، التمزق الذي جعل هاتين الهويةتين ينظر بعضهما إلى بعض، كل واحدة منفصلة عن الأخرى، وهو ما جعل صورة كل واحدة ظاهرة للأخرى بشكل كبير.

وحيث اكتمل هذا المخلوق الجديد الذي قدمته الرواية بوصفه سارا أو إكسندرا، لنا أن نتساءل بعد ذلك عن حقيقة هذا المخلوق، الذي صارت إليه منى، وتطمح في أن تصير إليه الشخصية العربية، أهو كائن هجين بين الثقافة العربية والثقافة الغربية تولد من تزاوجهما معا أم هو كائن جديد يقابل الكائن الأول في النقاء، وهو الذي يعني أن الهوية المقترحة من لدن منى هي هوية جديدة كل الجدة لا تتصل بالشخصية الأولى بسبب؟ الحقيقة أن هذا الكائن الجديد لا صلة له بما سبق، وقد اختارت الشخصية الرئيسية أن تكون على صورة الشخصية الغربية، وهو ما يعني أن الشخصية بالرغم أنها ترفض الكينونة الأولى، إلا أنها تؤمن بالتباين والتقابل والثنائية، الأنا في مقابل الآخر، ولذا انصرفت مباشرة لأجل أن تكون في حيز الآخر، ولذا فهي لا تختلف عن الشخصية الأخرى التقليدية المتخلفة التي تقبل الذات بكل ما فيها، فهي لم

كل يوم لنساء شرقيات قمن بما قامت به من تحديد خياراتها بنفسها بعيدا عن الوصاية. وكأنها بذلك تضع جوابا للسؤال المفصلي ألا يمكن أن يلتقي العرب وقيم الحضارة؟ أم أن العرب معادل للتخلف والجهل والعنف، والتسلط ولذا لا بد من تغيير الهوية حتى ندرك ذلك، وكأنه هو الجواب الحتمي لمن وسع مفهوم الهوية لتكون شاملة كل تفاصيل الحياة بخيرها وشرها.

وبناء على هذا الجواب يمكن أن نصل إلى الحقيقة الأخرى التي تتبع من إعادة السؤال الذي صاغه فرانز فانون عن الإنسان الأسود⁵⁸، فنقول: ماذا يريد الإنسان العربي أن يكون؟ هل هناك تصور لإنسان عربي جديد من خلال هذه الأدبيات؟ في النص الذي بين أيدينا يبدو الإنسان العربي سواء كان في البلاد العربية أو في المهجر، مسكونا بعباداته الاجتماعية التي تحولت إلى ثقافية، يعدها هي ذاته، وهي حقيقته، ليس له مكون سواها، ولا يريد أن يخرج عنها، ومن هنا وجدناه يدافع عنها في المكان الأصلي باعتبارها "مقدسا"، فجد مفردات العيب، والحياء، وكلام الناس تسيطر في الرؤية نحو الأشياء في القسم الأول، ونجد الموقف نفسه في المهجر أيضا، وهو ما يعني أن الإنسان العربي ليس لديه تصور حيال نفسه، وما يريد أن يكون عليه، والأمر لا يعدو أن يكون قضايا أيديولوجية يدافع عنها، ف"الأنا" هنا أيديولوجيا تمنعه من التداخل بالآخر، والاتصال به خشية الذوبان، أو التفكك، بالرغم من وجود المكونات المعرفية الحقيقية التي يمكن أن يعتمد عليها في تحديد الهوية دون العادات والسلوكيات الخاطئة المتخلفة.

تشردم الزمن تشردم الهوية:

من المعلوم أن الزمن السردى يسير وفق طريقة محددة في الأصل، إذ يبدأ من بداية الحكاية ويسير مع تطور أحداثها. هذا البناء الأصلي للزمن في النص الروائي أصبح أمرا غير معتاد في الكتابة الروائية فأصبحت الرواية لا تلتزم بهذه الطريقة في الزمن، بل كثيرا ما تبدأ من النهاية يعقبه تداخل في زمن القص مع زمن الحدث وتنتهي بعد ذلك إما بنهاية النص أو بنهاية الرواية أجمع⁵⁹. هذا

⁶⁰ هذا المصطلح يطلق على عدم انتظام الزمن التكنولوجي / التسلسلي كما سبق الحديث في المتن ومن الدراسات التي كتبت حوله: أمينة رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، دط، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998).

⁵⁸ انظر: هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر أديب، الطبعة الأولى، (المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006)، ص113.
⁵⁹ انظر: جيران جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ص45 وما بعدها.

وصفه باولو في روايته ألف شخصيته الرئيسية وهو يتحدث عن نفسه:

"بعد أسابيع من السير على الطريق، والاستماع إلى لغة لاتفهمها، واستخدام عملة لا تعرف قيمتها، وتسير في طرقات لم تسر بها من قبل، تكتشف أن "الأنا" القديمة مع كل ما تعلمته من قبل، غير مجد في مواجهة هذه التحديات الجديدة، ثم تدرك أن في نقطة مدفونة بعيدة من لاوعيك وعقلك هناك شخص آخر أكثر جاذبية ومغامرة وانفتاحا للعالم وللتجارب الجديدة"⁶².

حين تأتي الرواية من آخرها فإن هذا يعني أن النص قد اكتمل، ويعني استشعار المتلقي / القارئ بأن الشخصية الآن تقوم بتقويم التجربة الأولى، وبناء على إحساسه بإحساس الشخصية حيال ما دار باعتباره جزءاً الآن من الماضي، فإنه يستطيع أن يوازن بين التجريبتين الأولى والثانية: الهويتين الأولى والثانية، قرب الشخصية منهما. وإذا كان واضحاً من خلال النص والنهاية التي صارت إليها الشخصية أنها تنتصر للهوية الجديدة وتميل إليها وتطمح في أن تصير إليها من خلال الجهود التي قامت بها، إلا أن تخفيها خلف هذا الشكل الجديد، والاسم الجديد لم يستطع أن يخفي الهوية الأولى التي بدت من خلال الصوت، من خلال حركات الجسد التي تشي بتقافتها الأولى ومن خلال بعض الإشارات في المقاطع السردية التي أشير إليها من قبل. ذلك الصوت الذي لم يحدد هويتها الأولى ويكشف عنها وإنما وشى بتلك المرأة الأولى المعذبة المملوءة بالعادات والتقاليد، مما جعل أختها تحس بقربها وأنها تذكرها بها، وهو ما يعني تشردم هويتها بين هوية سابقة تريد الخلاص منها لا تكاد تظهر، وهوية جديدة تريد أن تأتي تصير إليها ولكنها لا تكتمل، وهو ما يوحي ببطلان مشروع استبدال الهوية على الجانب العملي كما بدا في هذه التجربة.

المراجع:

المصادر:

- عفاف البطاينة، خارج الجسد، الطبعة الأولى، لبنان، دار الساقي، 2004.

تنتج إنتاجاً هجيناً بين الذات والآخر يجمع كل ما في الآخر من حسنات وما يبقي على الذات ذاتاً، وإنما اتجهت نحو الآخر بكل ما فيها فهي تعد كل ما فيه من صفات يمثل التقدم، وهذا القول هو عين التخلّف، ولا يمكن أن يعد الاسم الذي اختارته لابنها "آدم" يعد نوعاً من التهجين باعتباره مقبولاً في الثقافة العربية، والإنجليزية، لأن أمه منى لم تلحظ هذا الجانب، بل لا تحفل به، يظهر هذا من الحوار الذي دار بينها وبين أم منار.

صحيح أن هذا التحول قد جاء رغماً عنها حيث إنها لن تستطيع أن تعيش حياتها الجديدة إلا بالتغيير الكلي بناء على تهديد الهوية الأولى ولكن هذا يعني بصورة من الصور أنها لا تؤمن بتحولها الكامل وممارسة حياتها كما تشاء إلا بعد أن تتخلص من هويتها الأولى تماماً وتدخل في إطار الهوية الجديدة، وهو ما يؤكد الحقيقة السابقة من أنها ظلت داخل بوتقة التقابل بين الأنا والآخر، ولم تكون كائناً ثالثاً عابراً للثقافات. وهو ما يعني أن الشخصية لم تستطع أن تطور نفسها لأن تدخل في مرحلة ما بعد الهوية التي يعني الانعتاق من أن تكون رهينة لزمان أو مكان معينين والاستجابة لما يتناسب مع الشخص نفسه.

وقد يكون السبب هو ارتباط الثقافة بشيء آخر ليكون الهوية، ففي الحالة الأولى، ارتبطت الثقافة بالعرب، فتحوّلت كما يصفها ولتر بين ميشيل⁶¹ إلى شيء تنطبق عليه صفات الأشياء؛ فيدافع عنه، ويحمي، وقد يسرق، وقد يسعى حفظه وذلك بخلاف الذات حين تكون خالية من الثقافة التي تجعلها قادرة على التنقل بين الثقافات والعبور بينها أو الثقافة التي لا ترتبط بالعرق لا تصبح شيئاً محدداً، وخصوصاً، وإنما تستقبل وتعمل على أنها سلوكيات حرة، أو معلومات تعبر عن معرفة الفرد أو سلوكياته ولا تتصل بالجماعة، يمكن أن يأخذ منها أو أن يدع، أو أن يرفضها أو ينقدها كما يشاء دون أن ينعكس ذلك على حس الجماعة. هذه الحالة التي تصبح بها الذات حرة من ثقافة معينة تملكها وتخضع لتأثيراتها، وتصبح فيها الثقافة حرة من ذات تشيئها، وتحولها إلى حدود لا يمكن أن تبدل نظراً لحالة مثالية سابقة مفترضة تشبه ما

⁶¹ See: Walter Benn Michael, Race into Culture: A Critical Genealogy of Cultural Identity. p.683-684.

⁶² Paulo Coelho, Aleph. (London:Harper, 2012), P.11.

المراجع الأجنبية:

- George Schopflin. Nations Identity Power. (London: Hurst & Company, 2000).
- Katharina Notzold. Defining the Nation. (Germany: Frank & Timme, 2006) Paulo Coelho. Aleph. (London: Harper, 2012).
- Walter Benn Michael. "Race into Culture: A Critical Genealogy of Cultural Identity". Critical Inquiry 18.4 Summer, 1992.

الدوريات:

- د.إبراهيم الشتوي، "الموقف من الآخر في السرد العربي"، صحيفة الجزيرة، المجلة الثقافية، الرياض، العدد354، تاريخ: 2011/12/1/1433/1/6.
- حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثاني، أكتوبر- ديسمبر 1999.

المراجع العربية:

- أمينة رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- جيران جنيت، خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمد معتمد وعبدالجليل الأزدي وعمر حلي، الطبعة الثانية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1997.
- حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة، 237، الطبعة الثانية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998/1419.
- رفاة الطهطاوي، تخلص الإبريز في تخلص باريز، تقديم يونان لبيب رزق، د.ط، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2005.
- عصام بهي، الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة، د.ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.
- كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، الطبعة الأولى، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2009.
- مجموعة كتاب، حرب 1967، المركز الفلسطيني للدراسات، مارس 2021.
- مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، مراجعة وتقديم: أ.د. الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة، 223، الطبعة الأولى، (الكويت/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997/1418).
- هومي بابا، موقع الثقافة، ترجمة ثائر أديب، الطبعة الأولى، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2006.

